

التناسب الدلالي في سورة البقرة دراسة أسلوبية

انتصار علي أحمد أبو شاييش (*)

المخلص:

تتناول الدراسة التناسب الدلالي في سورة البقرة ، إذ يمثل التناسب سمة أسلوبية في القرآن، وقد ركزت الدراسة على التناسب بنوعيه المعنوي واللفظي، حيث يبدو التناسب المعنوي واضحاً بين موضوعات السورة ، وكذلك بين مطلع السورة وختامها، وبين تعقيباتها وجوها العام، وذلك لإحداث التناسق والانسجام، أما التناسب اللفظي فهو يتكئ في أبرز أشكاله على ظاهرة العدول، حيث يعدل النص القرآني بنيته في المستوى السطحي؛ مراعاة للتناسب اللفظي، فقد اختيرت اللفظة القرآنية بدقة متناهية؛ لتلائم سياقها الواردة فيه.

Abstract

This Study aims at dealing with the semantic proportionality in Surah Al-Baqara, as proportionality represents a trait of the Koran style. The study focuses on both types of proportionality ,that is, moral and verbal. The moral proportionality appears obviously

(*) طالبة دكتوراه (دراسات أدبية ونقدية) - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية البنات - جامعة عين شمس .

within its Ayaat, as well as between the beginning and conclusion of the Surah, and so as between its comments and its general mood. This causes consistency and harmony. While the verbal proportionality lies in the most prominent forms on the linguistic deviation phenomena since the Quranic text deviates at the superficial level; to take into account the verbal proportionality. The Quranic word has been chosen accurately to suit its context.

تمهيد:

يُشكل النص القرآني حضوراً دلاليًا في الوعي الديني واللغوي والنقدي، وذلك من خلال تلك الأسئلة التي يثيرها بوصفه مرجعية أدبية وفنية خالدة؛ فهو النص المعجز الذي صنع من العقلية العربية أمة تحمله إلى الإنسانية قاطبة، لذلك كان من الطبيعي أن يُعنى المهتمون بمدارسه، محاولين فهمه وتفسيره ومعرفة خباياه واستكشاف مقدراته الجمالية بمستوياته المختلفة الدلالية والمعجمية والتركيبية والصوتية.

ويُجمع الأدباء والنقاد وعلماء البيان على أن التناسب الدلالي عنصرٌ مهم من عناصر الجمال في التعبير القرآني، فهو يكشف عن أهم ملامح إعجاز القرآن الكريم وبلاغته؛ ويعدُّ من أهم العلوم التي تحتاج جهدًا صادقًا، وعلمًا واسعًا، ونظرًا ثاقبًا.

جاء في لسان العرب "ناسَبَ شَرِكُهُ في نَسَبِهِ، والنَّسَبُ: البِئْسَابُ، والجمع نُسَبَاءٌ وأُنْسِبَاءٌ؛ ونقول: ليس بينهما مُنَاسَبَةٌ أي مُشَاكَلَةٌ"^(١)، وفي الصحاح "النَّسَبُ: واحد الأنساب. وَقُلَانٌ يَنَاسِبُ فَلَانًا فهو نَسِيبُهُ، أي قَرِيبُهُ، وبينهما مُنَاسَبَةٌ، أي: مُشَارَكَةٌ"^(٢).

إذن يتفق اللغويون على أن التناسب هو التماثل أو التشاكل، والمناسبة: المشكلة، أو المقاربة، وقد أدرك الأدباء والنقاد منذ وقت مبكر ما للتناسب اللفظي والمعنوي من أثر كبير في سلامة الشعر من الخلل، وزيادة حظه من

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، مادة نسب، ج ٤٨، ص ٤٤٠.

(٢) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ط ١، سنة ٢٠٠٨م، مادة نسب، ص ٣٥٣.

الجمال، وقد نقل ابن سنان (ت ٤٦٦هـ) على لسان الجاحظ قوله "إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها، بل وجدتھا قلقة في مكانها، نافرة في موضعها، فلا تُكرهها على القرار في غير موطنها.. وإذا أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً فيها، عابك من أنت أقل عيباً منه، وأزرى عليك من أنت فوقه"^(١). إن ابن سنان بحث الإحكام في النص الأدبي في ضوء روابط التباين والتلازم والتناسب "وحذر من تركيب صيغتين في جملة واحدة تقاربت حروفها أو تماثلت بأصواتهما.. بينما ظهرت رابطة التناسب في حثه على وضع الصيغة في مكانها المناسب، أو الملائم في الأسلوب؛ تحقيقاً للتأليف المحكم المؤثر"^(٢). وقد كان الذوق الأدبي في عصور ازدهار البيان العربي يميل إلى إثارة الكلام المتناسب الذي تتناسب ألفاظه وتتبادل فقراته، وكان الشعراء يدركون أثر التناسب بين الألفاظ في زيادة محاسن الشعر، فعمدوا إلى تزيين أشعارهم به ولو أدى بهم طلبه إلى ارتكاب ما يخالف القياس اللغوي يقول ابن سنان: "روى أبو الفتح ابن جني قال: قرأت على أبي الطيب المتنبّي قوله:

وَقَدْ صَارَتْ الْأَجْقَانُ قَرَحًا مِنَ الْبُكَاءِ وَصَارَ بَهَارًا فِي الْخُدُودِ الشَّقَائِقِ^(٣)

"فقلت: قرحى. فقال: إنما قلت قرحاً، لأنني قلت بهاراً"^(٤).

وقد فطن البلاغيون إلى قيمة التناسب ولكنهم لم يستعملوا هذا المصطلح، بل استعملوا مصطلحات أخرى مقاربة له (كالموازنة، المشاكلة، التشابه، الائتلاف، التلاؤم)، فقد عرض الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) على لسان بشر بن المعتمر

(١) ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٢م، ص ١٧٢.

(٢) د. حسن البنداري، مرايا التحلي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ١، سنة ٢٠٠٥م، ص ٢٧١.

(٣) المتنبّي، الديوان، دار بيروت، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٣م، ص ٧٦.

(٤) الخفاجي (ابن سنان)، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٢م، ص ١٧٠..

التناسب الدلالي في سورة البقرة فكر وإبداع دراسة أسلوبية

في صحيفته بعض النصائح العامة في صناعة البيان، وضرورة مراعاة التناسب بين المعاني والألفاظ يقول "ومن أراغ معنى كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً؛ فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف"^(١).

وتحدث أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) عن بعض أوجه التناسب وقيمتها البلاغية؛ فقال موجهاً نصيحته إلى طلاب البيان بالمحافظة على تناسب أجزاء الكلام "ينبغي أن تجعل كلامه مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هاديه لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعاً مع أختها، فإن تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام"^(٢).

أما علماء الإعجاز فقد أجمعوا على أن التناسب في النظم القرآني من أوجه الإعجاز، وقد ظهرت بذور البحث في التناسب المعنوي بين الآيات والمعاني القرآنية منذ عهد الصحابة والتابعين، ثم أخذ العلماء يفسرون ما أشكل على المسلمين من مناسبات الآيات، فوجدنا ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآني يوضح أوجه التناسب بين كثير من الآيات التي أشكلت، ويتصدى لأعداء الإسلام الذين قال فيهم "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللعن، وفساد النظم والاختلاف"^(٣).

ويعدُّ الرماني (ت ٣٨٦) من أبرز العلماء الذين اهتموا بالتناسب اللفظي، والصوتي، إذ خصص ثلاثة أبواب في رسالة "النكت في إعجاز القرآن" تتصل كلها بالتناسب وهي باب "التلاؤم، الفواصل، التجانس"^(٤).

(١) الجمل (أبو عثمان عمرو)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار لجيل، بيروت، (د.ت)، ج ١، ص ١٣٦.
(٢) العسكري (أبو هلال)، الصناعتين، تحقيق علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط ١، سنة ١٩٥٢م، ص ١٤١-١٤٢.
(٣) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٣، ص ٢٢.
(٤) الرماني، النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ودمحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، سنة ١٩٧٦، ص ٩٤-٩٩.

وكذلك أبو بكر الباقلائي (ت ٤٠٣) تحدث عن التناسب البياني وجعله من الخصائص التي خرج بها النظم القرآني عن المعهود في كلام العرب، يقول "ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة.. وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة"^(١). ويبدو أن حملات الطعن التي تعرض لها النص القرآني في القرون الأولى من نزوله، كانت من الدوافع التي حفزت العلماء إلى البحث في سلامة النظم القرآني من كل نقص؛ وذلك لإثبات إعجازه، والرد على الشبهات، وكان هذا أساساً صالحاً لنشأة علم المناسبة، والتأليف فيه.

ولعل حازم القرطاجني (ت ٦٨٤) من أكثر النقاد والبلاغيين اهتماماً بـ (التناسب)، إذ عدّه أحد المعايير الرئيسة التي ينبغي أن يحتكم إليها في التمييز بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض، ويمكن اعتبار القرطاجني من أعمق البيانين نظراً في إدراك قيمة التناسب اللفظي، والتناسب المعنوي، وكذلك التناسب الإيقاعي^(٢).

وعلم المناسبة علم يبحث في تماسك بناء السورة واتساق معانيها المتعددة ضمن غرض محوري واحد، دون تنافر أو تفكك، وهو يتناول تناسب الآيات فيما بينها، وتناسب فواتح السور وموضوعاتها وخواتيمها، وتناسب السور المتجاورة، وقد ظهر نتيجة لبحث الصحابة والتابعين في مناسبات الآيات، وهو "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالقلم الواحدة، متنسقة المعاني منتظمة المباني"^(٣).

ورغم أهمية هذا العلم ودقته؛ فإنه لم ينل الاهتمام الكافي من العلماء، يقول عنه السيوطي "وعلم المناسبة علم شريف، قلّ اعتناء المفسرين به لدقته.

(١) الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق أبو بكر عبد الرازق، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص ٣٢.
(٢) ينظر د. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط ١، سنة ١٩٩٢ م، ص ٢١ - ص ٢٢.
(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ م، ج ١، ص ٦٢.

وأول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابوري.. وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: لَمْ جُعِلَتْ هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه؟^(١). وقد ألف بعده برهان الدين البقاعي كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ثم تبعه السيوطي بكتاب "تناسق الدرر في تناسب السور" وكتاب "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع" وكذلك "البرهان في ترتيب سور القرآن" لابن الزبير الغرناطي، و"أسرار التكرار" المسمى "البرهان في توجبه متشابه القرآن" لبرهان الدين الكرمانلي. أما عند المفسرين فقد أشار الزمخشري إلى بعض وجوه التناسب بين الآيات، وكذلك الرازي في التفسير الكبير أو (مفاتيح الغيب)، ومن المحدثين أبو الفضل عبد الله بن محمد الصديق الغماري، وكتاب "جواهر البيان في تناسب سور القرآن".

ويعُدُّ سيد قطب من أكثر المحدثين توسعاً في دراسة أوجه التناسب في النظم القرآني، حيث كشف النقاب عن أوجه من التناسب لم تُكشف من قبل، حيث تتجلى ألوان التناسب عنده في أساليب التصوير الفني في القرآن الكريم، ثم التناسق الإيقاعي، والتناسب في عرض المشاهد والصور، والتناسب بين السورة وبين إطارها^(٢)، وقد طبق سيد قطب نظريته تلك في تفسيره "في ظلال القرآن".

ومن المحدثين أيضاً د. محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن" حيث اقتصر فيه على وجه واحد، هو التناسب المعنوي ووحدة السورة، وقد قَدَّمَ دراسة تطبيقية على سورة البقرة، وأوضح

(١) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، (دب)، ج ٣، ص ٢٢٤.
(٢) ينظر سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط ١٦، سنة ٢٠٠٢م، ص ٣٦-٢٢٤.

التناسب بين أجزائها ومعانيها، وختم تحليله بقوله: "لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات.. لعمري إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات!"^(١).

أولاً: التناسب المعنوي

يتمثل التناسب المعنوي في وحدة الموضوع والهدف في كل سورة، وانسجام الآيات بعضها ببعض، والتماسك والتعاقب بين السورة وما سبقها وما لحقها؛ ولأجل ذلك حاولت الدراسة الإجابة عن عدد من الأسئلة والتي أبرزها: هل يوجد تناسب بين موضوعات السورة؟ وهل بداية السورة تناسب خاتمها؟ وما وجه اتصال سورة البقرة بالفاتحة التي تسبقها وآل عمران التي تليها؟ وهل من علاقة بين قصص السورة وموضوعها؟ وهل للسورة محور رئيس؟ وهل لاسمها ارتباط بمحورها؟ وما مدى التناسب بين موضوع السورة وتعقيباتها المختلفة؟

١- وحدة الموضوع في سورة البقرة:

تعتبر سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم، وأكثرها جمعاً للمعاني المختلفة، وقد تحدث د. محمد دراز عن الطريقة التي نزل بها القرآن منجماً حيث قال عن سورة البقرة هي "أكثرها في التنزيل نجومًا، وأبعدها في هذا التجسيم تراخيًا.. وحوّت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفا وثمانين نجمًا، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين"^(٢).

(١) د. محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، دار الثقافة، الدوحة، ط١، سنة ١٩٨٥، ص ٢١١.
(٢) د. محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، ص ١٥٧، ١٥٨.

التناسب الدلالي في سورة البقرة
دراسة أسلوبية

فكر وإبداع

ويمكن تقسيم موضوعات السورة إلى:

م	الموضوع	الآيات	المعاني التي تحملها	المحور الرئيس
١	المقدمة	٢٠-١	التعريف بالقرآن وما فيه من الهداية.	التعريف بالدين الإسلامي وكشف
٢	المقصد الأول	٣٩-٢١	دعوة الناس كافة للإيمان.	عداوة اليهود للإسلام في المدينة ونقضهم للعهد، والإعداد الجيد للجماعة المسلمة، وذلك لترسيخ الدعوة الإسلامية، وخلافة الأرض.
	المقصد الثاني	١٦٢-٤٠	دعوة أهل الكتاب للدخول في الإسلام.	
	المقصد الثالث	٢٨٣-١٦٣	عرض شرائع الدين (صلاة- إلخ).....	
	المقصد الرابع	٢٨٤	الوازع الديني لالتزام تلك الشرائع.	
٣	الخاتمة	٢٨٦-٢٨٥	التعريف بالذين استجابوا لدعوة الإسلام.	

تتجلى الوحدة الموضوعية في سورة البقرة غاية التجلي، ويبدو الترابط واضحاً بين مقاطعها، حيث تتأكد فيها وحدة البناء على طولها وتعدد قضاياها، وكثرة موضوعاتها، وتتعانق فيها الجمل والكلمات، وتحلُّ براعة الاستهلال مكانة بارزة من حيث أهميته، ومن حيث علاقته ببقية أجزاء النص، حيث تشتمل هذه السورة تضم عدة موضوعات، ويرى صاحب الظلال أن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً فهي تدور "حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة،

ومواجهتهم لها، وموقف الجماعة الإسلامية وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نقض بني إسرائيل لعهد الله، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها^(١)، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين.

فقد بُدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة (ألم)، لا عهد للعرب بمثلها في إنشائهم وإنشادهم - كما يقول الدكتور دراز رحمه الله - مما يوقظ الأسماع ويوجه القلوب، وفيه معنى التحدي والإعجاز بهذا القرآن المكوّن من مثل هذه الحروف، المنزه عن أي ريب، ولذلك تبع الأحرف المقطعة قوله تعالى: {لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (البقرة: ٢)، لبيان كماله وعلو مكانته فالإشارة إلى الكتاب باسم الإشارة الدال على البعيد لبيان كماله وعلو مكانته، إعلاناً أنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه، لأنه الحق الذي لا شبهة فيه، وتأتي الآيات التالية لتتحدث عن ثلاثة أصناف من الناس: المتقين الذين كان هذا الكتاب لهم هدى حتى لكأنه إليهم أنزل^(٢)، ثم الذين كفروا ممن استوى في شأنهم الإنذار وعدمه، فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها في يثرب؛ ويضطّر الكثيرون لمداهنتها، لذلك تحدثت عنهم السورة بإسهاب. و"هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله، ووصفت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه، ولا مزية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر، لا يكون إلا حقاً واضحاً لا ريب فيه"^(٣).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، سنة ١٩٩٢م، ج ١، ص ٢٨، بتصرف.

(٢) ينظر محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار الثقافة، الدوحة، ط ١، سنة ١٩٨٥، ص ١٦٤، ١٦٥، بتصرف.

(٣) ينظر محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص ١٧٣.

وبعد الحديث عن الكتاب، فإن الآيات تنتقل للحديث عن مراد الله تعالى من الكتاب وهو توحيد بالعبادة لها أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ {البقرة: ٢١} وهذا أول نداء في المصحف الشريف يتجه إلى الناس جميعهم، لأن القرآن في الأصل للناس كافة، وتستعرض الآيات طريقة القرآن في الهداية، حيث يضرب الأمثال ويبين الحقائق بجلاء ووضوح، ثم استعرضت قصة البقرة، ثم تشبّه الآيات قلوبهم القاسية كالْحِجَارَةِ؛ لأن "الذي لا يؤمن بعد إقامة الحجة عليه، ولم يستعمل عقله إنما هو بمنزلة الحجار فقرن بينهما"^(١)، ثم يلتفت السياق القرآني إلى تحذير الفئة المسلمة من اليهود المعاندين لكلام الله {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} {البقرة: ٧٥}، تضمنت سورة البقرة كذلك الإعداد الجيد للفرد/الجماعة المسلمة، وذلك لترسيخ الدعوة، وحمل راية الإسلام في الأرض، فبعد أن استعرضت النماذج البشرية الثلاثة: المتقين، والكافرين، والمنافقين، يتجه الخطاب القرآني للناس جميعاً إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزل على عبده، ويتحدي المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله، ويهدّد الكافرين بالعذاب، ويبشّر المؤمنين بالجنة ويتعجب من أمر الملحدين {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {البقرة: ٢٨}.

ثم تُعرض قصة استخلاف آدم في الأرض، وتمضي القصة لتصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان، حتى تنتهي باستخلاف بني آدم، ثم يأتي الحديث عن بني إسرائيل، الذين كانت فيهم الخلافة والإمامة الدينية زماناً،

(١) د.فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن، مكتبة التابعين، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٨م، ص ١١.

لينتهي إلى التأييس من إيمانهم، وفصح تصرفاتهم، والردّ عليهم في موضوع القبله، وبيان علاقة المسلمين بإبراهيم عليه السلام الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل، مع التأكيد على أن هذا الانتساب لا يفيد ما لم يكن انتساب إيمان واستقامة، فلا ينال عهد الله الظالمون، وبالتالي فقد انتزعت الخلافة والإمامة الدينية منهم.

وبعد النداءات الثلاثة الموجهة إلى بني إسرائيل تتحول الآيات الكريمة إلى المؤمنين الجدد تفصل لهم أركان دينهم، وشرائع إسلامهم، وتجيب على أسئلتهم، وتحرضهم على القتال لردّ العدوان، ولئلا تكون فتنة ويكون الدين لله، وتتضمن التفصيلات التشريعية من (طلاق، وصيام، وصلاة) ثم تأتي قصة الجهاد والخلافة (قصة طالوت) مسبوقة بقصة الهاربين من الموت؛ لتؤكد أن من يطلبون الموت هم الذين توهب لهم الحياة، وباقي الآيات عن الإنفاق، وعدم إبطاله باليمن والأذى، ففي قوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} (البقرة: ٢٨٥) جاءت متوسطة بين أحداث الطلاق والوفاء، وذلك "لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فأمرهم بذلك ليرتدعوا ولئلا يبغى بعضهم على بعض، ثم أمرهم بالمحافظة على الصلاة لئلا تشغلهم المشكلات العائلية عنها فيتركوها أو يتهاونوا في أدائها"^(١)، وهذا قمة التناسب المعنوي.

وترد في أواخر السورة آية الدين، وتأتي الآيات الخاتمة لتؤكد أن كل ما في السماوات والأرض ملك لله وحده، وأنه سبحانه محاسب الكل على ما يبدون وما يخفون وهو على كل شيء قدير، ثم تُختم بالحديث عن إيمان الرسول والمؤمنين، وإعلانهم السمع والطاعة مع الاستغفار والإقرار بالرجعة إلى الله تعالى، وقد لخص صاحب المنار سير ترتيب موضوعات سورة البقرة

(١) د.فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن، ص ٢٩.

وتوحدنا بأن الخطاب القرآني "ذكر الكتاب أنه لا ريب فيه، ثم ذكر اختلاف الناس فيه، ثم ضرب الأمثال، ثم طالب الناس كلهم بعبادته، وتحدى المرتابين بما أعجزهم، ثم حذر وأنذر وبشر ووعد، ثم ذكر المثل والقُدوة، ثم ذكر خلق الإنسان وبين أطواره، والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه، وهو الكتاب والمرسل به، وحاله مع المرسل إليهم^(١). تلك إذن هي سورة البقرة في تناسب معانيها وتماسك آياتها، وائتلاف لبناتها رغم اختلاف موضوعاتها، وهذا قمة الإعجاز الدلالي.

٢- التناسب بين مطلع السورة وختامها

التفت اللغويون إلى أهمية المطالع والخواتم في الرسالة اللغوية، وأثرهما على المتلقي؛ لكونهما أول وآخر ما يصل إلى الأسماع؛ فهما الأعماق أثرًا من أجزاء الرسالة اللغوية، وتمثل العبارة الافتتاحية المحور الذي يدور عليه باقي النص فيما بعد، أما الخواتم فهي تنهي بانتهاء أجزاء النص وموضوعه، وقد أكد الزركشي أن خواتم السور مثل فواتحها في الحسن "لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلها جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يذكر بعد"^(٢).

ويظهر التناسب بين الفواتح والخواتم واضحًا في النص القرآني، ففي سورة البقرة نرى ختام السورة يتناسب مع مطلعها، فيبين طبيعة التصور الإسلامي، وإيمان الأمة المسلمة بالأنبياء كلهم، وبالكتب كلها، وبالغيب

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١، دار المنار، القاهرة، ط ٢، سنة ١٣٦٧هـ، ص ٢٨٩ باختصار.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٣٣.

المطلق وما وراءه، مع السمع والطاعة وفي هذا تناسق بين البدء والختام، يقول صاحب المنار: "إنه لما افتتحت هذه السورة ببيان كون القرآن لا ريب فيه، وكونه هدى للمتقين وذكر صفات هؤلاء المتقين،..ناسب بعد هذا كله ختم السورة بالشهادة للمؤمنين مع النبي ﷺ بالإيمان وهم المهتدون تمام الاهتداء، ولقنهم من الدعاء" (١).

وقال الرازي "بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد، فقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ} (البقرة: ٢٨٥)، وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (البقرة: ٣)، فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها" (٢).

وخُتِمت السورة أيضاً بوفاء وعدما لكل نفس بذلت وسعها لله ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} (البقرة: ٢٨٦)، ثم تأتي لحظة الختام التي تفتح باب الأمل والرجاء أمام المهتدين، فيرفعوا أكف الضراعة في خشوع تام، وخوف تتخلع له القلوب وتخر له الجباه، في دعاء خالد ربنا..ربنا.. ربنا ربَّنَا لَا تُوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ { (البقرة: ٢٨٦).

٣- التناسب بين سورة البقرة وسورة الفاتحة:

لقد اشتملت فاتحة الكتاب على معاني جليلة ومقاصد سامية، بدأت بحمد الله تعالى، ثم بذكر صفاته، وفي هذا إقرار بربوبيته، كما اشتملت الفاتحة

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ج ٣، ص ١٤٣.
(٢) الرازي (محمد فخر الدين)، التفسير الكبير، دار الفكر، ط ١، سنة ١٩٨١م، ج ٧، ص ١٣٨-١٣٩.

على مجمل ما فصله القرآن بعد ذلك" وتلك من براعة الاستهلال، وهي إشعار المتكلم في مفتتح كلامه بما يريد أن يفرض فيه^(١).

وسورة الفاتحة هي أم القرآن الكريم جميعه، ومن البديهي أن تكون أمًا لسورة البقرة على وجه الخصوص؛ فقد ذكر السيوطي أن "جميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً"^(٢)، ولما أرشد الله تعالى عباده في سورة الفاتحة إلى أن يسألوه الهداية {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الفاتحة: ٦) قيل له: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} (البقرة: ٢)، هو مطلوبك وفيه أربك^(٣).

٤- التناسب بين سورة البقرة وسورة آل عمران :

تأتي بداية آل عمران بالحروف النورانية المقطعة المبتدأ بها في سورة البقرة نفسها (آلم) وقد ذكر الزركشي أن "كل سورة استفتحت بهذه الحروف فهي مشتملة على مبدأ الخلق، ونهايته، وتوسطه، مشتملة على خلق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر"^(٤).

وقد لخص د. حفني شرف خلاصة آراء العلماء حول هذه القضية، حيث يقول إن العلماء سلكوا في تفسير معنى الفواتح المعجمة طريقتين:

الأول: التزم أصحابه الصمت ، واعتبروها مما استأثر الله به، وقد اعتبرها السيوطي "من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى"^(٥).

(١) أبو الفضل عبد الله الغماري، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة، (د.ت)، ص ١٩.

(٢) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، تحقيق عبد الله أحمد عطا، دار الاعتصام، (د.ت)، ص ٧٥.

(٣) أحمد بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، تحقيق د. سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، جدة، ط ١، سنة ١٤٢٨هـ، ص ٨٤.

(٤) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢١٧.

(٥) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٢١.

الثاني: اعتبر أصحابه أن لهذه الفواتح معاني، ويجب التأويل للوصول إليها، وقد اختلف أصحاب هذا الرأي في تأويلهم، حتى وصلت أقوالهم إلى أكثر من عشرين رأياً: منها أنها أسماء للسور القرآنية، ومنهم من اعتبرها أسماء أو بعض أسماء الله تعالى، ومنهم من قال: إن هذه الفواتح للدلالة على أن القرآن مؤلف من تلك الحروف التي يستخدمونها^(١) ورأي آخر يقول: إن هذه الحروف للتبنيه، فكانت هذه الفواتح أشبه بالأجراس أو الأصوات التي تفرع أسماعهم فتدعوهم إلى الاستماع، ورأي خامس يقول: أنها قَسَمٌ من الله بالحروف المقطعة.. إلخ، وقد انتهى رأي د.حفني شرف إلى أنها أدوات للتبنيه؛ خاصة أن أغلبها نزلت بمكة عدا سورة البقرة وآل عمران، فهما مدينتان^(٢).

ومهما تكن الغاية من وجود هذه الحروف؛ فإن السورتين قد بُدئتا بـ (ألم)، وهذا وجه من وجوه التشابه، ثم ينتقل السياق في كل منهما بالحديث عن القرآن الكريم {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (البقرة: ٢)، {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} (آل عمران: ٣)، أي نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، لا شك فيه، وهو مصدقٌ لباقي الكتب السماوية. وختمت سورة البقرة بسؤال النصر {وانصرونا على القوم الكافرين} وفي مفتتح سورة آل عمران بين نصرتهم وتصديقه لهم بالكتاب {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران: ١-٢).

٥ - التناسب بين قصص السورة وموضوعها

يتميز القصص القرآني عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالة وقداسته، ويزداد بها بلاغة وإعجازاً، ويعظم بها أهمية

(١) ينظر الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٨٨.
(٢) ينظر د.حفني شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنة ١٩٧٠م، ص ٢٣٤-٢٥٤.

وتأثيراً، وتعتبر القصة القرآنية أسلوباً تربوياً ينهض على الإثارة والتشويق، وتشرح طبائع الناس والأمم ووسائل علاجها، وسنن الله في عقابها أو معافاتها، وهي ليست لمجرد التسلية، ولكنها تاريخ لسير الدعوة والأنبياء، والقصة القرآنية تعرض عبر السياقات القرآنية مفصلة أو مختزلة، مفتوحة أو مغلقة، وإذا ما تأملنا مقدمة القصة القرآنية فإننا نجد الخطاب - في الغالب - يكون موجهاً فيها للنبي ﷺ دلالة على أن هذه القصة تساق لتثبيته ولتأكيد دعوته.

وتمتزج القصة القرآنية بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجاً عضوياً، حيث تسهم في بيان مضمون النص وإيضاحه للمتلقي، هي لا ترد إلا إذا تطلّبها المقام واقتضت البلاغة ذكرها، حيث يُذكر الجزء الذي له علاقة بموضوع السورة، ولا تذكر القصة كاملة، وربما نجد في القصة الواحدة أكثر من موضع للعظة والعبرة، وأكثر من جانب للاستشهاد بها" حيث يُعرض في كل موطن جانباً منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد"^(١).

وبالدراسة المتأنية لسورة البقرة نجد أنها قد اشتملت على ثماني قصص بدءاً من قصة خلق آدم ﷺ، وقصة موسى مع بني إسرائيل، وقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة، وفي الربع الأخير من السورة تأتي خمس قصص هي: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة طالوت وجالوت، ثم تأتي متتابعة قصة الذي حاج إبراهيم في ربه، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وأخيراً سؤال

(١) د.فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ط٤، سنة ٢٠٠٦م، ص ٢٨٣.

إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وهذه القصص على كثرتها واختلافها، يبدو التناسب بينها وبين موضوع السورة الرئيس واضحاً.

١- محور الإمامة والإحياء :

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (البقرة: ٧٣) "أي فضربه فحيي، ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ} (البقرة: ٥٦) هذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة، ونبّه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها، على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً^(١).

إن جو الإحياء والإمامة يظل قصص السورة الكريمة، فآدم خلق من عدم، وطالوت بُعث لأمة كانت مهزومة ميته، وقادها إلى النصر، وإبراهيم عليه السلام يواجه الذي حاجّه في ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحيي ويميت (البقرة: ٢٥٨) وكذلك فإن إنجاء بني إسرائيل من آل فرعون الذين كانوا يذبحون أبناءهم هو إحياء للسابقين، وسبب وجود اللاحقين والمعاصرين منهم للنبي ﷺ، وفي استجابة الله تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بجعل مكة بلداً آمناً هو إحياء لمكة ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم (إبراهيم: ٣٧). إن محور الإحياء الذي

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم عبد القادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط٦، سنة ٢٠٠٤م، ج١، ص ١٦٧.

يتكرر في فضاء السورة، يأتي ليعزز قضية الوصول بالمؤمنين إلى مرحلة اليقين بالآخرة.

٢- محور الخلافة والهداية وحمل راية الإسلام :

تبدأ قصة آدم عليه السلام بخطاب النبي ﷺ **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** (البقرة: ٣٠)، وكأنها تؤكد أن الله قد أرسل محمداً ﷺ ليكمل الرسالة التي لأجلها أسكن أباه آدم وبنيه الأرض، وتأتي بعد ذلك قصة إبراهيم عليه السلام وألوفها تأكيد على أن إمامة البشرية وقيادتها بالدين، لا ينالها إلا من استقام على أمر الله، ولا عبرة بكونه من نسل إبراهيم عليه السلام.

وتؤكد الآيات فكرة الخلافة والإسلام في الأرض، وذلك على لسان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾** (البقرة: ١٢٨)، وقصة طالوت أيضاً جاءت لتبين للرسول ﷺ أن طريق التمكين للدين وأهله وإقامة الخلافة في الأرض هو الجهاد **﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾** (البقرة: ٢٤٩).

٣- محور العلم والقدرة الإلهية :

وأمر آخر يجمع قصص السورة في تناسب واضح هو العلم الإلهي الذي يهبه لمن يشاء من عباده؛ ففي قصة خلق آدم عليه السلام لما اعترضت الملائكة على خلافة آدم عليه السلام، أظهر الله تعالى تميزه عنهم، وجدارته بخلافة الأرض بما اختصه به من العلم **﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** (البقرة: ٣٣) هذا ولم يرد استخلاف آدم في مكان آخر من القرآن، وأنسب مكان لهذا الجزء من القصة في هذا المكان إذ

الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران: الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه، والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف^(١).

وفي دعوة إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يرفعان القواعد اعترافاً صريحاً بالحكمة الإلهية {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} (البقرة: ١٢٩)، وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، أماتهم الله ثم أحياهم حكمة إلهية، الغرض منها تشجيع المؤمنين على القتال "إن الهلع لا يرد قضاء؛ وإن الفرع لا يحفظ حياة؛ وإن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الإحياء.. فلا نامت أعين الجبناء"^(٢).

ويتكرر مجيء القدرة الربانية والحكمة الإلهية في قصة الذي مرَّ على قرية، وفي قصة إبراهيم إذ سأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى {قَالَ أَوْكَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَنَّ قَلْبِي} (البقرة: ٢٦٠)، {وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة: ٢٦٠).

وفي قصة طالوت يظهر تميّز طالوت وجدارته للملك {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} (البقرة: ٢٤٧)، وكذلك الأمر في قصة النمرود حيث الحكمة الإلهية من ذلك {لَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} (البقرة: ٢٥٩).

٦- التناسب بين اسم السورة وموضوعها الرئيس :

الاسم أو العنوان هو مجموعة من العلامات اللسانية تدل على محتوى نص محدد، وهي تجذب المتلقي وتدفعه للولوج إلى النص. واشتملت سورة

(١) د. فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص ٢٨٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٦٤.

البقرة على عدة موضوعات، يجمعها محور واحد هو مواجهة بني إسرائيل للدعوة الإسلامية في المدينة، وإعداد الجماعة المسلمة لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، وبعد أن تناولت سورة البقرة الأصناف الثلاثة من الناس (المؤمنين، الكفار، المنافقين) وبيّنت صفات كل منها وجزاءه، استعرضت قصة آدم عليه السلام وخلافته في الأرض، ثم انتقلت إلى قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وتعداد نعم الله تعالى عليهم، ومقابلتهم لها بالحدود والكفران، فجاءت قصة البقرة كمشهد ساطع يؤكد مماطلتهم وجدالهم لنبيهم، بحجة التبين لمواصفات البقرة، وتشديدهم على أنفسهم، شدد الله عليهم في مواصفات البقرة ولما ذبحوها ورموا القتل ببعضها كانت المعجزة الكبرى في إحياء الميت {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} (البقرة: ٧١).

جاء في تفسير الشعراوي "إن اسم سورة البقرة قد أخذ من قضية أساسية في الدين وهي الإيمان بالبعث، حيث الإيمان بالبعث هو أساس الدين، وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بني إسرائيل، رأوا البعث وهم ما زالوا في الدنيا؛ حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلاً.." ^(١)، ويقول البقاعي في بداية السورة "مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (البقرة: ٢) ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة؛ فمداره الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب؛ فلذلك سميت بها السورة" ^(٢).

(١) الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، راجعه د. أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، القاهرة، (د.ت)، ج ١، ٩٥.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت) ج ١، ٥٥.

وبذا يظهر جلياً التناسب بين اسم سورة البقرة وموضوعها في أكثر من وجه.

٧- التناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية (جملة الخاتمة)

تمثل التعقيبات القرآنية التي ترد في خواتم الآيات القرآنية، أو في نهاية القصص القرآنية ظاهرة أسلوبية، وسمة بارزة من سمات النص القرآني، وتعتبر وجهاً من وجوه البلاغة القرآنية والإعجاز، والتعقيب هو "ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختامها، تذيل به الآية زيادة في البيان، ومحافظة على وحدة الإيقاع"^(١)، حيث يتصل من جهة بالتناسب المعنوي لسياق السورة، ومن جهة ثانية بالتناسب الإيقاعي وتناسب الفواصل، وهي تختلف عن الفواصل اختلافاً كبيراً، يقول الزركشي عن الفاصلة هي "كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة الشعر"^(٢) أما التعقيب فمن أمثله {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (البقرة: ١٢٧)، ففعله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} تعقيب غاية في التناسب؛ فانه سميع لما صدر عنهما من تضرع، وعليم بنياتهما وإخلاصهما في العمل.

وكان هذا النوع من التناسب المعنوي في النظم القرآني موضع عناية واهتمام كبير في الدراسات البيانية والبديعية، وقد انصب اهتمام أصحابها بوضع المصطلحات البديعية لكل نوع من هذه التعقيبات وتعريفه.

وبالدراسة المتأنية تبين أن التعقيبات في سورة البقرة عدة أنواع منها ما هو في آيات التهديد، أو الترغيب، ومنها ما هو في نهاية القصة، أو في نهاية الأمثال، كما يوضحها الجدول التالي:

(١) د. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، سنة ١٩٩٢م، ص ٩١.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص ٨٢.

التناسب الدلالي في سورة البقرة
فكر وإبداع
دراسة أسلوبية

أنواع التعقيبات القرآنية في سورة البقرة

م	نوع التعقيب	أمثلته
١	التهديد والوعيد	لَوَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {البقرة: ٣٩}
٢	الترغيب	لَوَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {البقرة: ٨٢}
٣	تأكيد المعنى	كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ {البقرة: ٢٨}
٤	نهاية القصة	فَقُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {البقرة: ٣٨}
٥	أسماء الله الحسنى	لَرْبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {البقرة: ١٢٩}

معظم آيات هذه السورة تنتهي بتعقيبات مناسبة لمعنى الآية، وقد كان ابن عاشور من المفسرين الذين أظهروا عناية واضحة للتناسب المعنوي في التعقيبات القرآنية، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: **لَوَلَّكُلْ وَجْهَةً هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** {البقرة: ١٤٨} يقول: "وقوله {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} تنذير يناسب جميع المعاني المذكورة"^(١).

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتوير، الدار التونسية، ط١، سنة ١٩٨٤ ج١، ٢، ص ٤٤.

ويمكن تسجيل بعض الخصائص الأسلوبية لتعقيبات سورة البقرة:

- ١- التعقيب سمة من سمات النظم القرآني يجمع بين الوفاء بحق التناسب المعنوي، والوفاء بالتناسب الإيقاعي على السواء^(١).
- ٢- التعقيب بصفة العلم تكرر عشرين مرة، ويكثر في آيات الحدود والأوامر التكليفية، وفي بيان بديع صنع الله في خلق الكون وتدبيره، وبيان الإنفاق في سبيل الله.
- ٣- التعقيب بصفة المغفرة تكرر ثماني مرات (غفور رحيم، غفور حلیم)، وهو يكثر في مقام العفو والتخفيف وتقوية الرجاء في رحمة الله كقوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة: ٢٢٥).
- ٤- التعقيب بصفة القدرة المطلقة تكرر ست مرات في سياق الآيات الدالة على عظيم قدرته تعالى، وتأتي غالبًا في ختام الآيات التي تضمنت التهريب والترغيب، وجاءت مرة واحدة في نهاية قصة الذي مر على قرية خاوية على عروشها، فجاء التعقيب مناسبًا لسياق القصة حيث يلفت الانتباه أن التهديد صادر عن يقدر إنفاذه {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: ٢٥٩).
- ٥- التعقيب بصفة بصير تكرر خمس مرات في سورة البقرة، وجاءت في سياق العبادات والمعاملات من إنفاق وطلاق، وصلاة وزكاة، ومرة خامسة في سياق الحديث عن بني إسرائيل وعنادهم، والتأكيد على أَنَّ الله يرى ويسمع كل شيء.

(١) ينظر د. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص ١٢٠.

٦- التعقيب بالصفات الإلهية يتنوع باختلاف الأغراض والمقامات، وباختلاف الدلالات التي تحملها كالتخويف، والترغيب وقد تأتي للوعد أو الوعيد.

٧- تكثر التعقيبات بالصفات الإلهية في آيات الحدود والأحكام والتكاليف الشرعية.

٨- يراعى في تعقيبات الحلقات القصصية أن تكون مناسبة لمقاصد السورة، ومناسبة للمشهد المختار من السورة.

٩- يكثر في تعقيبات القصص أن تتضمن التذكير بالأهداف الدينية والتربوية للقصة، والتذكير بأن القصة جاءت لتثبيت الرسول ﷺ.

١٠- التعقيب بصفتي "العزیز الحكيم" في سورة البقرة، يأتي في مقام التذكير بمعاني الغلبة والقهر والافتدار والإحكام، وقد قيل إن هذه القاعدة مطردة في القرآن كله^(١).

وهكذا نرى أن التعقيبات القرآنية في سورة البقرة جاءت منسجمة مع سياقها، متناسبة ومتألفة في المعنى، وساهمت في إنتاج الدلالة، فكل كلمة في التعقيبات وضعت في مكانها الصحيح، بحيث لا تتأفر في المعنى بين الكلمات.

ثانياً: التناسب اللفظي

التناسب اللفظي: هو مناسبة اللفظة لسياقها أو هو "تشابه لفظي يصنعه التوسع في الدلالة، بمقتضى السياق، وليس لأصل الوضع اللغوي لمدلول

(١) ينظر د. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، ص ١١-١١١.

الكلمات^(١)، وقد نزل القرآن على أمةٍ تميزت بالفصاحة والبلاغة، فكانت معجزته من جنس ما برعوا فيه، وقد شهد بذلك فحول اللغة العربية، فهذا الوليد بن المغيرة قد استمع إلى القرآن فقال مقولته الشهيرة " والله إن لقوله حلوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه"^(٢).

وقد تحدث العلماء قديماً وحديثاً عن الأسباب التي جعلت القرآن يؤثر هذا التأثير في سامعيه وقارئيه، فأرجع بعضهم ذلك إلى جانب التعبير اللفظي، وأسلوب الصياغة، وأرجعها آخرون إلى جانب النظم، وأحوال التراكيب. وإذا ما تدبرنا سورة من سور القرآن الكريم، أخذتنا روعة ألفاظها وسهولتها، وقُرب معانيها، ومجيئها على قدر المعنى الذي صيغت له، فألفاظها وضعت في موضعها الصحيح من النظم الكريم، وهي مختارة بدقة من بين بدائل متعددة، لذلك تأتي متناسبة مع سياق الآية في البنية السطحية للنص، بحيث لو رفع اللفظ من الآية أو استبدل؛ لاختل نظامها، وضاع المعنى المراد منها .

وقد أولى بعض المعاصرين هذا الجانب عناية خاصة، وأبرزوا تلك القيم الجمالية التي يضيفها التناسب اللفظي، يقول الزرقاني متحدّثاً عن مسحة القرآن اللفظية " إنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي"^(٣).

وفي تناولنا للتناسب اللفظي في سورة البقرة ، يمكن أن يندرج الحديث في محورين، الأول : تناسب اللفظة مع سياقها، أو مراعاتها لحسن الجوار، والثاني: التناسب من خلال العُدول.

(١) د.شكري الطوانسي، البلاغة العربية. مقارنة نسقية بنيوية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١١م، ص٣١٧.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص١١٩.

(٣) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٤٤.

١- تناسب اللفظة مع سياقها:

قد يكون التناسب اللفظي ناتجاً عن جزالة المفردة وسلامة بنياتها، بحيث تكون متناسقة الحروف، لا يصلح في موضعها غيرها، بحيث تكون "موسيقية" في أدائها موحية في معناها وائتلاف الألفاظ بعضها مع بعض، بمعنى أن يقرن الغريب بمثله، والمتداول بمثله لحسن الجوار^(١)، وقد أسماه العلماء ائتلاف اللفظ مع المعنى، أو مراعاة النظير، أو التناسب، فإذا كان المعنى فخماً كانت ألفاظه فخمة، وإن كان غريباً كانت ألفاظه غريبة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} (يوسف: ٨٥)، حيث جاءت الآية "بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء لأنها أقل أدوات القسم استعمالاً، وأبعد عن إفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة.. أتى سبحانه بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ)، وكذلك لفظ (حرضاً) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقترضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًا لحسن الجوار، ورغبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم"^(٢).

ومن أمثلته في سورة البقرة قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ} (البقرة: ٥٤) حيث جاءت لفظة البارئ أنسب من غيرها من الأسماء الحسنى "لأن البارئ هو الذي

(١) د. حفني شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الكتاب الرابع، سنة ١٩٧٠، ص ٢٢٠.

(٢) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق حفني شرف، نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص ٧٧-٧٨.

خلقهم بريئاً من التفاوت، وهي نعمة جسيمة، وكان حق الشكر عليها أن يخصوه بالعبادة، فلما عكسوا وعبدوا العجل استردت منهم تلك النعمة بالقتل^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} (البقرة: ٢٨٦) فقد جاء لفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لنقلها^(٢).

وقد ذكر السيوطي في معترك الأقران أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة: ٢٠٩)، بدل قوله تعالى: {فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن هذا ليس بكلام الله؛ لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه^(٣).

٢- التناسب من خلال العُذول:

إن التناسب اللفظي هو سمة أسلوبية في النص القرآني تتأسس أصلاً على ظاهرة العُذول، والعُذول هو أهم مباحث الدراسة الأسلوبية، حيث يتمثل في "رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف، أو كما يقول كوهين: (الانتهاك) الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الأسلوب، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته"^(١).

وقد نظر الأسلوبيون إلى اللغة في مستويين: الأول المستوى المثالي، وهو الأداء العادي للغة، والثاني المستوى الإبداعي، الذي يعتمد على انحراف هذه المثالية واختراقها.

(١) د. عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٩٩م، ص ٤٧.

(٢) ينظر السيوطي، الإتيان، ج ٣، ص ٢٦٣.

(٣) السيوطي، معترك الأقران، صححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٨م، ج ١، ص ٣٢.

(٤) محمد عبدالمطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العلمية للنشر، ط١، سنة ١٩٩٤م، ص ٢٦٨.

العُدول في اللغة: "عَدَلَ عنه يعدلُ عُدولاً إذا مالَ، كأنه يميل من الواحد إلى الآخر" (١)،

وهو عند البلاغيين، يكمن في إثارة المفاجأة، يقول: "ولما كانت النفوس تحب الافتتان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك إلى بعض؛ ليتجدد الكلام عليها، وكانت معاونة الشيء على تحصيل الغاية المقصودة به بما يجدي في ذلك.. فوجب أن يكون الشعر المراوح بين معانيه أفضل من الشعر الذي لا مراوحة فيه" (٢).

والعُدول عند أستاذنا د.حسن البنداري هو المهارة اللغوية الفنية التي تمتد إلى عملية التلقي" فيتمكن بواسطتها من أن يستحوذ على اهتمام القارئ، فيربطه بجزئيات النص الشعري وجوانبه، لأنه سيجتهد في أن يسوق إليه عناصر جمالية بشكل معين تكشف عن طبيعة المشاعر، ونوعية العواطف الكائنة.. كما تكشف عما يتولد عن النص من ردّ فعل لدى المتلقي، ومن ثم تتحول هذه المهارة إلى قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارئ" (٣)، وهو أيضاً الخروج عن النظام المثالي للغة "أو تطويعه إلى ما يخدم الغرض الفني من ناحية، والحرص في الوقت نفسه على الفائدة الدلالية التي نتحسها في ثنايا النظام الجديد، والتي بها يتم التواصل الإنساني، فالمبدع لا يهدم من أجل الهدم، وإنما يهدم نظاماً ليقوم على أنقاضه نظاماً آخر، يتساق مع خصوصيته التعبيرية وشاعريته" (٤).

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، (د.ت)، ج ٣٢، ص ٢٨٤٢.
(٢) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأنبياء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، (د.ت)، ص ٣٦١.

(٣) د.حسن البنداري، الأداء التبادلي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، سنة ٢٠١٠م، ص ١٣-١٤.

(٤) د. محمد صلاح أبو حميدة، البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، دار المقداد، غزة، ط ١، سنة ٢٠٠٧م، ص ١٣٤.

ويعتبر العُدول في السياق القرآني موضوعًا دقيقًا؛ لأنه يتناول وجهًا لطيفًا من أوجه بلاغة القرآن، وهذا العُدول أو المغايرة بين الألفاظ ظاهرة أسلوبية تتكرر كثيرًا في البنية القرآنية، وتخضع للتناسب الدلالي بين اللفظة وسياقها أو ما يجاورها، وقد يكون هذا العُدول معجميًا، أو صرفيًا، أو صوتيًا، ويُعدُّ من أهم ألوان الجمال الدلالي والصوتي، لأن فيه تحولًا عن المؤلف أو المتوقع من التعبير في البنية العميقة للغة، إلى دلالة السياق في المستوى السطحي، وهذا العُدول يحقق اختصاصًا في الجانب الدلالي، بما يمتلكه من طاقة تعبيرية، تثيري فضاءات النص.

ويمكن مدارس مثل هذه التلوينات الجمالية من خلال عدة محاور لاستكناه مكنونات هذا اللون من التوظيف:

١- العُدول عن نظائر اللفظة:

إن اختيار السياق القرآني للفظه، يخضع لمحددات معينة أهمها التناسب الدلالي، والصوتي، والتناسق التعبيري. واختيار اللفظة من بدائل متعددة هو أمر مقصود، فمثلاً في قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} (البقرة: ٢٥٥). يمكن تخيل السياق - في غير النص القرآني - كالتالي:

البنية العميقة (الوضع المثالي)	(أمامهم)	X	وما خَلْفَهُمْ
البنية السطحية	(عُدول)	(مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)	X وما خَلْفَهُمْ

إن الذهن يستدعي ظرف المكان (أمامهم) لمناسبة الظرف اللاحق وهو (خلفهم)، ولكنَّ هناك عُدولاً في البنية السطحية عن المستوى المثالي للغة، وذلك لأن المقصود بها هو علم الله المطلق الذي لا يرتبط بمكان ولا

زمان يقول الزمخشري: "لَا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ"، ما كان قبلهم، وما يكون بعدهم، والضمير (ما) في السماوات والأرض لأن فيهم العقلاء^(١).

وقال ابن عاشور: "استعمالان مبنيان على اختلاف الاعتبار في تمثيل ما بين الأيدي والخلف، وقيل أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو فرع من الماضي والمستقبل، وقيل المحسوسات والمعقولات، وأياما كان فاللفظ مجاز.. والمقصود عموم العلم بسائر الكائنات"^(٢).

وهكذا نرى في عدول القرآن عن نظائر المفردة "تلوينا دلاليًا أكثر شمولاً واتساعاً من الحصر في نطاق دلالة معينة، لأن مناط التوظيف هنا هو الاتساق مع السياق"^(٣)، ومن ذلك قوله تعالى: {فَإِنْ قَاتَلْتُمُكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} (البقرة: ١٩١). فيها عدول عن اللفظ الملائم للفعل {فَاقْتُلُوهُمْ} وهو لفظ {القاتلين} إلى لفظ مجاور له دلاليًا وأعم معنى وهو {الكافرين}.

وقد تكرر العدول عن نظائر اللفظة في سورة البقرة خمس عشرة مرة.

٢- العدول في الآيات المتشابهة لاختلاف السياق:

قد يستعمل التعبير القرآني مفردة، ويستعمل غيرها في سياق آخر مشابه له، مراعيًا في ذلك الإحياءات والظلال التي تنثيرها كل لفظة في سياقها، واختلاف المفردات في سياقاتها التوظيفية من الملامح الأسلوبية الفريدة في النص القرآني، إذ يناط بكل مفردة في سياقها أداء الأغراض التي

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، حققه عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، سنة ١٩٩٧م، ج١، ص٣٠١.

(٢) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٣، ص٢٢.

(٣) د. أسامة جاب الله، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم، دار الإسماء، طنطا، ط١، سنة ٢٠٠٨م، ص٢٤٥.

قصدت من وراء توظيفها في هذا السياق، والتي لا تقوم بها غيرها لو وضعت موضعها، وهذا التعاور في السياق القرآني إنما هو دليل إعجاز لغوي وبلاغي. يقول الخطابي (ت ٥٣٨٨هـ) في بيان هذه الظاهرة: "ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب. والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها" (١)، إن الخطابي يدرك بذائقته البلاغية مدى الارتباط الوثيق بين اختيار الكلمات القرآنية، وبين الدلالة المتوخاة من وراء هذا الاختيار الدقيق للمفردة، وفقاً لمبدأ الاختيار والتوزيع.

ومن العُدول بين الآيات المتشابهة في السور المختلفة؛ مراعاةً للتناسب بين اللفظة القرآنية وسياقها، استعمال صيغة (انفعل) بما يناسب الامتثال والطواعية؛ وذلك في كلمة (انفجرت) في سورة البقرة، وكلمة (انبسجت) في سورة الأعراف {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} (البقرة: ٦٠) {إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} (الأعراف: ١٦٠)، ورغم التشابه الكبير بين الآيتين؛ إلا أن السياق يختلف في كل منهما، يقول الرازي: "الانفجار: خروج الماء بكثرة، والانبجاس خروجه قليلاً.. فهما مختلفان اختلاف العام والخاص، فلا يتناقضان، ولعله انبجس أولاً ثم انفجر ثانياً، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلاً ثم يكثر لدوام خروجه" (١). ويوضح الراغب الأصفهاني الفرق بينهما

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، سنة ١٩٧٦م، ص ٢٩.

(١) الرازي (محمد فخر الدين)، التفسير الكبير، دار الفكر، ط ١، سنة ١٩٨١م، ج ٣، ص ١٠٣.

التناسب الدلالي في سورة البقرة دراسة أسلوبية

بقوله: "يقال بجس الماء وانبجس انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار فيما يخرج من شيء واسع" (١).

ويرى د. فاضل السامرائي أن هناك فرقاً كبيراً بين الانفجار والانبجاس، ذلك أن الانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل، وكل تعبير يناسب موطنه، فالمقام في سورة البقرة تعداد النعم.. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء، ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحياً، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس" (٢).

وقد يكون العدول إلى لفظ معين في السورة مراعاةً لسياقها وجوهاً العام، كما في قوله تعالى: {قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} (البقرة: ٥٩) وفي الأعراف {قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} (الأعراف: ١٦٢).

قال السيوطي "الإرسال أشدُّ وقعاً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة ذلك، وختم آية البقرة بـ (يفسقون) ولا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق، فناسب كل لفظة منها سياقه" (٣).

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث، مكتبة نزار مصطفى الباز للنشر، (دب)، ص ٣٧.

(٢) د. فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص ٣٢٢.

(٣) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣٤٢.

ومن خلال إحصاء جميع الآيات المتشابهات في سورة البقرة مع غيرها من السور - حيث يكون العدول في جزء من الآية مراعاةً للتناسب اللفظي بين اللفظة وسياقها العام - وجد أن عدد الآيات المتشابهات ست عشرة آية.

٣- عدول الصيغ الاشتقاقية:

يقول الزركشي: "اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نُقِلَ إلى وزن آخر أعلى منه، فلا بد أن يتضمّن من المعنى أكثر ممّا تضمّنهُ أولاً؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ، وجب زيادة المعاني ضرورة" ^(١). وعدّ الزركشي منه قوله تعالى: { فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } (القمر: ٤٢) فهو عنده أبلغ من (قادر)؛ لدلالته على أنّه قادرٌ متمكّنُ القدرة، ويُسمّى هذا "قوّة اللفظ لقوّة المعنى" ^(٢).

وللتعبير القرآني طرائق متنوعة في العدول بالأبنية منها: استعمال مصدر مع وجود غيره للفعل نفسه ومن ذلك قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (البقرة: ٢)، فقد عدل إلى المصدر (هُدًى)، ولم يؤت بـ (هداية) في القرآن الكريم، مع أنّ الـ (هداية) مصدرٌ لـ (هُدًى)، مثل (هُدًى). وقد جاء في مفردات الراغب "الهدى و الهداية في موضوع اللغة واحد، لكن قد خصّ الله عزّ وجلّ لفظة الهدى بما تولاّه وأعطاه، واختص هو به، دون ما هو إلى الإنسان" ^(١).

وتعدّ هذه سمة أسلوبية في التعبير القرآني، فهو يستعمل مصدرين مختلفين في البنية للفعل الواحد، قد يدلّ كل واحدٍ منهما على المعنى نفسه

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج ٣، ص ٣٨.

(٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج ٣، ص ٣٨.

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٥٤١.

عند علماء اللغة، أما في النص القرآني فلكل منهما دلالاته السياقية الخاصة. ومن ذلك دلالة (الصَّوْم) و (الصَّيَام)، حيث لا فرق بينهما عند علماء اللغة فـ "الصَّوْم في الأصل الإمساك عن الفعل مطعمًا كان أو كلامًا أو شيئًا، ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير أو العلف صائمٌ، قال الشاعر: خيلٌ صِيَّامٌ وأخرى غيرُ صَائِمةٍ"^(١).

أما في القرآن فقد جاء على لسان مريم {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنِ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} (مريم: ٢٦)، واختصت فيه كلمة (الصَّوْم) بمعنى: "صَمْتُاً عن الكلام"^(٢). وهذا هو الموضع الوحيد الذي وردت فيه لفظة (الصَّوْم) في القرآن الكريم، أما لفظة (الصَّيَام) فيستعملها التعبير القرآني بمعنى (العبادة المعروفة). وقد وردت سبع مرات في القرآن كله، اثنتان منها في سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} (البقرة: ١٨٣)، {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ} (البقرة: ١٨٧)، وقد علل د.فاضل السامرائي العُدول في سورة مريم إلى (الصَّوْم) بدل (الصَّيَام) بقوله: "كأنه لما كان بمعنى (الصَّمْتُ) جيء به على وزنه، وخصه الله به"^(٣). ويمكن القول إن القرآن استعمل (الصَّيَام) في التكليف الشاقة، وهي الامتناع عن الطعام والشراب وغيره، وخص (الصَّوْم) بالأمر السهل وهو الصَّمْتُ، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والصَّيَام أكثر حروفاً، فناسب كل منهما معناه المراد.

ومن أنماط العُدول في الأبنية أيضاً: العُدول من اسم الفاعل إلى اسم المفعول؛ وذلك مراعاة لدلالة السياق، ومنه قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ

(١) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص ٢٩١.

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط ١، سنة

٢٠٠١م، ج ٣، ص ١٥٢.

(٣) د.فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار، عمان، ط ٢، سنة ٢٠٠٧م، ص ٢١.

أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ} (البقرة: ٢٣٣)، فالعُدول في قوله من (الوالد) إلى (المولود له) "للدلالة على أن الأولاد للآباء لا للأمهات، ولهذا يُنسبون إليهم دونهن، كأنهن إنما ولدن لهم فقط" (١).

وكذلك العُدول من اسم الفاعل (كافر) إلى صيغة المبالغة (كفار) في قوله تعالى: {لَيَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيُرِييَ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} (البقرة: ٢٧٦)، فقد جاء في الفروق اللغوية للعسكري أنه "إذا فُعل الفعل وقتاً بعد وقت، قيل فَعَالٌ مِثْلَ عَلَامٍ وَصَبَّارٍ" (٢)، وهذه الصيغة تدل على المبالغة والتأكيد.

ومن ذلك أيضاً العُدول من اسم الفاعل إلى المصدر (فتنة) في قوله تعالى: {وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} (البقرة: ١٠٢). أي نحن (فاتنون).

ومن خلال الإحصاء وجد أن العُدول في الصيغ الاشتقاقية في سورة البقرة بلغ (ستاً وثمانين) مرة.

٤ - العُدول بالفعل إلى الاسم وبالعكس:

يستعمل القرآن بنية الكلمة (فعلاً، اسماً) استعمالاً في غاية الدقة والجمال، ويوظفها بما يتناسب مع سياق الآية، ويحفظ تناسق التعبير ورونقه. ومن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت. جاء في الإيضاح "وأما كونه - المسند - فعلاً فللتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة على أخصر ما يمكن مع إفادة التجدد، وأما كونه اسماً فلإفادة عدم التقييد والتجدد" (١).

(١) الشوكاني (محمد علي)، فتح القدير، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، (د.ت)، ج ١، ص ٤٢٦.
(٢) العسكري (أبو هلال)، الفروق اللغوية، تحقيق إبراهيم بليغ، دار العلم للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص ٢٤.
(٣) القزويني (جلال الدين)، الإيضاح في علوم البلاغة، علق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ٢٠٠٢م، ص ٧٩.

ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٤-١٥)، فرّق السياق بين قول المنافقين للمؤمنين، وقولهم لأصحابهم، فقد خاطبوا المؤمنين بجملة فعلية (آمنّا)، وخاطبوا جماعتهم بجملة اسمية (إنّا معكم)، وفي هذا عدول واضح من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية التي تدل على الثبوت، وهم بذلك لم يسووا بين الخطابين، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية هناك عدول من الاسم إلى الفعل المضارع في قوله (مستهزئون، يستهزئ)، إذ الجزاء من جنس العمل، ولكن استهزاء الله أكبر، وهو متجدد على مدى الأيام^(١)، وكذلك يمدّهم ربهم في الطغيان، قال أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) "وأبرزوا هذا الإخبار في جملة اسمية مؤكدة بإنما مخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الذي يدل على الثبوت، وأن الاستهزاء وصف لهم، لا أن ذلك يتجدد عندهم، بل ذلك من خلقهم وعاداتهم مع المؤمنين"^(٢)، إن تفسير هذا الملمح الجمالي للعدول من الفعلية إلى الاسمية، مرتبط بالسياقات القبلية والبعدية لهذه الآيات.

ومن خلال الإحصاء تبين أن العدول من صيغة الفعل إلى الاسم قد تكرر بكثافة كبيرة حيث بلغ ثلاثاً وتسعين مرة، أما عدول الاسم إلى الفعل فلم يشكل نسبة كبيرة، حيث بلغ عدد تكراره ست مرات، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن العدول إلى الاسم فيه ثبات واستقرار واستمرار خاصة مع الصفات الإلهية، وصفات المؤمنين التي كثرت في سورة البقرة.

(١) ينظر السيوطي، قطف الأزهار، تحقيق أحمد الحمادي، وزارة الثقافة والشئون الدينية، قطر، ط١، سنة ١٩٩٤م، ص ١٩٤.

(٢) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م، ج ١، ص ٢٠٢.

٥- العُدول في صيغ الأفعال:

كل صيغة من صيغ الفعل تحمل معها معنى ودلالة خاصة لا تحملها صيغ أخرى فـ" الزيادة في الكمية الصوتية تشكل ما يمكن أن نطلق عليه القرائن الدلالية أو المورفيمات، التي توصف بأنها عناصر صرفية صغرى، ذات قيم تمييزية تكمن في الوظائف التي تؤديها.. تؤدي هذه الزيادات الصوتية إلى استيعاب دلالات جديدة"^(١)، لذا كثيراً ما نرى في النص القرآني عُدولاً صرفياً يُترك فيه الوزن القياسي لدلالة معنوية مقصودة، فصيغة (فَعَلَ) تدل على حدوث الفعل لمرة واحدة، و(فَعَّلَ) تدل على التكثير والتكرير.. وهكذا، ففي قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ} (البقرة: ٢٤٩)، فقد عُدل عن الفعل (غَرَفَ) إلى (اغترف) الذي يدل على المطاوعة، وذلك للدلالة على حدوث الفعل من صاحبه بجد وإصرار وسعي، فكان هذا العُدول للدلالة على قوة إرادة أتباع موسى، فالإنسان إذا ما كان ظمآنًا، من الصعب أن يتحكم في كمية الماء التي يشربها، وهذا هو الامتحان الذي امتحن الله به قوم موسى عليه السلام. يقول الطبري: "فمن اغترف غُرْفَةً وأطاعه رَوَى بطاعته، ومن شرب فأكثر عَصَى، فلم يَرَوْا لمعصيته"^(١). فلو جاء بصيغة الفعل (غَرَفَ) لما أفادت تلك الدلالات والإيحاءات التي أوضحها الفعل (اغترف).

وكذلك العُدول عن صيغة (أَنْجَيْنَاكُمْ) إلى (نَجَّيْنَاكُمْ) في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ لِّجَيْشِكَم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} (البقرة: ٤٩)، وذلك كما يقول ابن الزبير "فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء، ذكروا بها ليزدجروا بها عن المخالفة والعناد، وناسبه التضعيف لإتيانها بالكثرة.. وأيضاً فإن التضعيف في (نَجَّيْنَاكُمْ) يناسب التضعيف الوارد بعده في قوله (يُذَبِّحُونَ)"^(٢).

(١) د. عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء، عمان، ط ١، سنة ٢٠٠٢م، ص ٣٢٣.
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج ٤، ص ٤٨٩.
(٣) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، بيروت، ج ١، (دب)، ص ٥٤-٥٥.

ومنه التبادل بين الفعلين (أنزل ، نزل) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٣) ، فقد أتى بـ (نَزَّلْنَا) دون (أَنْزَلْنَا)؛ لأنَّ المراد النزول على سبيل التدرُّج، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان؛ لأنَّهم كانوا يقولون " لو كان هذا من عند الله ، ومخالفاً لما يكون من عند الناس، لم ينزل هكذا نجومًا بحسب الحوادث على سنن ما يرى" (١).

وصيغ العُدول في أزمنة الفعل كثيرة في سورة البقرة، ومن ذلك العُدول من الماضي إلى المضارع (تتلو) في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٢) ، "أي ما تلت" (٢)، وذلك للدلالة على التجدد والاستمرار في الإغواء من الشيطان لابن آدم على مر الزمان، ومن أمثلة ذلك أيضًا العُدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال، كقوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧) . ويكثر العُدول في أفعال سورة البقرة إلى صيغة (استفعل) التي تفيد الطلب (١)، مثل (استوقد) ، (استمسك) ، (استسقى) ، (استشهد) ، (تسترضعوا) وتُستعمل في سورٍ أخرى مجردة من هذه الأحرف مثل: (أوقد)، (أمسك)، (سقى)، (أشهد)، (أرضع) وهو أمرٌ ملحوظٌ ومطرّد في بناء السورة، ويعتبر منبّهًا أسلوبيًا، الأمر الذي يؤكد أن سياق سورة البقرة يشكل وحدة لغوية واحدة، تصبُّ كلُّ الأساليب في تأكيدها، ومن خلال الإحصاء وجد أن العُدول في الأفعال تكرر ثمانين وأربعين مرة في فضاء السورة.

٦- عُدول الاسم من حيث العدد:

للاسلوب القرآني طريقتة في الأداء التبادلي بين التذكير والتأنيث، أو المفرد والجمع، وهذا التبادل أو العُدول لا يخلو من فائدة أو غرض بلاغي،

(١) السيوطي، قطف الأزهار، ص ٢١٠.

(٢) السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٣٣٥.

(١) ابن جني (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، القاهرة (د.ت)، ج ٢، ص ١٥٣.

أو ملمح جمالي، ومن ذلك أنه يستعمل صيغة الجمع في مكان، ثم يستعمل صيغة جمع أخرى لنفس المفردة، في مكان آخر يبدو شبيهاً له، وذلك على نحو استخدامه لكلمة (سنايل) في سورة البقرة، و(سنبلات) في سورة يوسف. في قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ} (البقرة: ٢٦١)، {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سَنَابِلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ} (يوسف: ٤٣). حيث وردت الأولى مرة واحدة في القرآن الكريم، والثانية مرتين، وذلك في سياق قصة يوسف. وقد علل الزركشي ذلك سرّ ذلك بأن سنايل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة، وقد قيل في تفسيرها " إن آية البقرة سبقت في بيان المضاعفة والزيادة، فناسب صيغة جمع الكثرة، وآية يوسف أتت بجمع القلة؛ ليصدق اللفظ المعنى" (١).

ومن أمثلة الاختيار الدقيق للمفردة من بين بدائل متعددة؛ لتناسب دلالة السياق جمع كلمة (خطاياكم) في قوله تعالى: {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} (البقرة: ٥٨) بجمع الكثرة، وفي سورة الأعراف {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ} (الأعراف: ١٦١) بجمع القلة، يقول د.فاضل السامرائي: " في سورة البقرة: {خَطَايَاكُمْ} بجمع الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة، وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم، أي: مهما كانت خطاياكم كثيرة فإننا نغفر لكم. وقد جاء في سورة الأعراف: {خَطِيئَاتِكُمْ} بجمع القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة، أي: يغفر لهم خطيئات قليلة، وهو مناسب لمقام التقرير والتأنيب" (١) فالسياق إذن هو المحدّد الأساس لدور الكلمة في الاستعمال اللغوي، لذلك فقد استخدمت كل كلمة في موضعها المناسب.

ومن خلال الإحصاء الدقيق لتلك المفردات التي تكررت بصيغة الجمع في سورة البقرة، ووردت فيها وفي غيرها بصيغة المفرد، وجد أن عددها

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص٢٦. وينظر د.فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٤٠.

(١) د.فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص٣٢٠.

(٢٩٣ مرة) ثلاثٌ وتسعون ومائتان، وهناك جموع وردت في سورة البقرة ولم يرد له مفرد من جنسها في القرآن، مثل (النساء، أولي الأبواب، خطوات، مطلقات، خاسرين، خاسئين، ذوي القربى، أهلة، المنقون، متطهرين، القتلى).

٧- العُدول في الحروف:

إن الحروف بأنواعها المختلفة قد اختصت بجوانب وظيفية ودلالات خاصة، يكشف عنها السياق الواردة فيه، حددها النحاة في مواقع كثيرة، وقد تتعرض هذه الحروف في النص القرآني إلى بعض الخروج عن النظام المثالي للغة، وذلك بمجيء بعض الأفعال متعديًا بحرف، ثم العُدول عنه إلى حرف آخر في السياق نفسه و " مسار التعبير الإبداعي قد يمارس انزياحًا عن هذه القواعد، شرط ألا يؤدي إلى اختلال التوازن القيمي، وإنما يجب أن يكون إضافة مميزة، وليس خرقًا سالبًا، يفضي إلى الغموض والالتباس وتداخل المفاهيم" (١).

إن بعض البلاغيين سمي هذا العُدول تضمينًا يقول ابن جني: " اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانًا بأن هذا الفعل في معنى الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه" (٢). إن كلام ابن جني يشير إلى أن التبادل في استعمال الحرف، قد يقع بين فعلين ينتميان إلى حيز دلالي واحد، ولا يوجد بينهما فرق كبير في الدلالة، فالفعل بذلك يحمل دلالتين دلالاته الأصلية، والدلالة المأخوذة بعد دخول الحرف عليه.

(١) د. عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، ص ١٨٩.

(٢) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٠٨.

إن اهتمام البلاغيين بتتبع العُدُول في الحروف، ومحاولاتهم المستفيضة في هذا الجانب، إنما قصد من ورائه البحث عن القيم التعبيرية والجمالية للنص، ففي قوله تعالى: {أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} (البقرة: ١٨٧)، لفظة (الرفث) كوحدة لغوية خارج السياق القرآني، توظف مع (الباء)، للوصول إلى دلالة موجبة القيمة، فيقال: رفث بالمرأة. لكن النظم القرآني عدل بحرف الجر (الباء) ليتجه صوب دلالة الإفضاء، وهذه الدلالة يناسبها حرف الجر (إلى).

ويعلق ابن جني على الآية السابقة بقوله: "وأنت لا تقول: رفثت إلى المرأة، وإنما تقول: رفثت بها، أو معها، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي (أفضيت) بـ (إلى) كقولك: أفضيت إلى المرأة جئت بـ (إلى) مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه" (١).

ومن ذلك أيضاً العُدُول في حرف الجر (الباء) في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} (البقرة: ٢٧٤). أي في الليل.

وبالإحصاء الدقيق لتلك الانزياحات الواردة في الحروف في سورة البقرة، وجد أن تلك الانزياحات تكررت (١٥١) إحدى وخمسين ومائة.

٨- العُدُول عن لفظة إلى غيرها، لمعنى يطرد في القرآن الكريم كله :

تنبه المفسرون إلى أن التعبير القرآني قد يعدل عن لفظة إلى أخرى، ويؤثرها على غيرها، رغم أنها تعطي مفهومها ودلالاتها، تأكيداً لمعان وإحياءات تنتشر في فضاء النص وسياقه، وهذا يطرد في النص القرآني كله. نلمح ذلك في لفظتي (الله) و(الرب)، فقد تكرر لفظ الجلالة (الله) في سورة

(١) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٣٠٨.

البقرة (٢٩٣) ثلاثاً وتسعين ومائتي مرة، بينما تكررت لفظة (رب) في البقرة أربعين مرة، ففي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ} (البقرة: ٢٧٨)، وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ} (النساء: ١). يقول السيوطي: "حيث ذكر (الناس) ذكر (الرب)، وحيث ذكر (الإيمان) ذكر (الله)" (١)، وقال أبو حيان في قوله تعالى: {وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ} (البقرة: ١٤٩) " فحيث نُبِّهَ على استدلال حكمته بالنظر إلى أفعاله ذكر (الرب) المقتضي للنعم، لننظر منها إلى المنعم، ونستدل بها عليه، ولما انتهى إلى ذكر الوعيد ذكر (الله) المقتضي للعبادة التي من أجلها استحق العذاب" (١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة: ١٧٣)، فقد جاء في سورة الأنعام {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام: ١٤٥). وعلل الكرمانلي (ت ٥٠٥هـ) ذلك بـ " أن لفظ (الرب) تكرر في (الأنعام) عشرون مرة، ولأن فيها ذكر الحبوب والثمار، وأتبعها بذكر الحيوان من الضأن والمعز والإبل، وبها تربية الأجسام، فكان ذكر (الرب) فيها أليق" (٢)، وقد فرق أبو حيان الأندلسي (ت ٥٧٤هـ) بين المقامات التي تحدث بها إبراهيم عليه السلام مع الكافر قائلاً " لَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ الَّذِي سَأَلَهُ الْكَافِرُ عَنْ رَبِّهِ حِينَ ادَّعَى الْكَافِرُ الرِّبوبيَّةَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} (البقرة: ٢٥٨)، فلما انتقل إلى دليل أو مثال أوضح وأقطع للخصم، عدل إلى الاسم الشائع عند العالم كلهم، فقال: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

(١) السيوطي، قطف الأزهار، ج ١، ص ٢٠٦.

(٢) الأندلسي (أبو حيان)، البحر المحيط تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية

بيروت، ط ١، سنة ١٩٩٣م، ج ١، ص ٦١٣.

(٣) الكرمانلي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق د. السيد الجميلي، مركز الكتاب، القاهرة، (د.ت)، ص ٢٧.

المَشْرِقُ {البقرة: ٢٥٨}، قرَّرَ بذلك أن ربَّه الذي يحيي ويميت هو الذي أوجَدَكَ وغيرَكَ أيُّها الكافر، ولم يقل: فإنَّ ربي يأتي بالشمس، ليُبيِّن أنَّ إله العالم كلِّهم هو ربُّه الذي يعبدونه، ولأنَّ العالم يسلمون أنَّه لا يأتي بها من المشرق إلاَّ إلَهِهم^(١).

نسبة العُـدول في سورة البقرة :

م	نوع العُدول من	عدد تكرارها	النسبة
١	العُدول عن نظائر اللفظة	١٥	٢,١%
٢	العُدول في الآيات المتشابهات	١٦	٢,٢%
٣	عُدول الاسم إلى الفعل	٦	٠,٨%
٤	عُدول الفعل إلى الاسم	٩٣	١٣,١%
٥	عُدول الصيغ الاشتقاقية	٨٦	١٢,١%
٦	العُدول في الأفعال	٤٨	٦,٨%
٧	عُدول الاسم من حيث العدد	٢٩٣	٤١,٣%
٨	العُدول في الحروف	١٥١	٢١,٣%
	المجموع الكلي	٧٠٨	

وهكذا يعدُّ التناسب الدلالي من الظواهر اللغوية البارزة في النص القرآني، إذ يقوم على نوعين من التناسب: المعنوي، واللفظي. فقد لمسنا مدى

(١) الأنطلسي (أبو حيان)، البحر المحيط، ج٢، ص ٣٠٠.

انسجام موضوعات السورة وتناسبها، فهي تشكل بنية نصية واحدة، يتناسب مطلعها مع ختامها، ومع سابقها ولاحقها، حتى لتبدو السورة؛ بل القرآن كله نصاً لغوياً واحداً تنسجم موضوعاته وتتناسق غاية الانسجام ، الأمر الذي يخدم الناتج الدلالي والتأثير الجمالي.

أما التناسب اللفظي فيمثل ظاهرة واضحة في البنية القرآنية من خلال التبادل الدلالي، أو أسلوبية العُدول، وما يُحدثه من أثرٍ ومفاجأة في المتلقي، وصولاً للقيمة الجمالية، فاللفظة القرآنية مختارة بدقة متناهية لتؤدي معناها في سياقها، متمكنة في موقعها ، لا يسد غيرها مسدها.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم
٢. ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق حفي شرف، نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
٣. ابن جني(أبو الفتح عثمان)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، القاهرة(د.ت).
٤. ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة، بيروت، ج١، (د.ت).
٥. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٢م.
٦. ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب، القاهرة ، ط١٩٧٣، ٢.
٧. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم عبد القادر الأرناؤوط ، دار السلام، الرياض، ط٦، سنة ٢٠٠٤م.
٨. ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، (د.ت).
٩. أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٨م.
١٠. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م.
١١. أبو الفضل عبد الله الغماري، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة، (د.ت).
١٢. د.أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن.. دراسة في النظم المعنوي والصوتي، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط ، سنة ١٩٩٢م،
١٣. أحمد بن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن ، تحقيق د.سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، جدة، ط١، سنة ١٤٢٨هـ.

التناسب الدلالي في سورة البقرة
دراسة أسلوبية

فكر وإبداع

١٤. د. أسامة جاب الله، جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم، دار الإسماء، طنطا ، ط١، سنة ٢٠٠٨م. الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أبو بكر عبد الرازق، مكتبة مصر، القاهرة، (د.ت).
١٥. البقاعي، نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (د.ت).
١٦. ج
١٧. ج
١٨. ج
١٩. الجاحظ (أبو عثمان عمرو)، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت ، (د.ت).
٢٠. الخطابي، بيان إعجاز القرآن. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٧٦م.
٢١. الخفاجي (ابن سنان)، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٢م.
٢٢. د. حسن البنداري، الأداء التبادلي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، سنة ٢٠١٠م.
٢٣. د. حسن البنداري، مرايا التجلي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٥م.
٢٤. د. حنفي شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنة ١٩٧٠م.
٢٥. د. حنفي شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الكتاب الرابع، سنة ١٩٧٠م.
٢٦. الرازي (محمد فخر الدين)، التفسير الكبير، دار الفكر، ط١، سنة ١٩٨١م.

٢٧. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث، مكتبة نزار مصطفى الباز للنشر، (د.ت.).
٢٨. الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٣، سنة ١٩٧٦.
٢٩. الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٤٤.
٣٠. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ج١، ص٦٢.
٣١. الرمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، حققه عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط١، سنة ١٩٩٧م.
٣٢. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط١٦، سنة ٢٠٠٢م.
٣٣. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط١٧، سنة ١٩٩٢م.
٣٤. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، (د.ت.).
٣٥. السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، تحقيق عبد الله أحمد عطا، دار الاعتصام، (د.ت.).
٣٦. السيوطي، قطف الأزهار، تحقيق أحمد الحمادي، إصدار وزارة الثقافة والشئون الدينية، قطر، ط١، سنة ١٩٩٤م.
٣٧. السيوطي، معترك الأقران، صححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٨م.
٣٨. الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، راجعه د. أحمد عمر هاشم، أخبار اليوم، القاهرة، (د.ت.).

٣٩. د.شكري الطوانسي، البلاغة العربية.مقاربة نسقية بنيوية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، سنة٢٠١١م.
٤٠. الشوكاني(محمد علي)، فتح القدير،تحقيق د.عبد الرحمن عميرة،(د.ت).
٤١. الطاهر بن عاشور،التحرير والتتوير، الدار التونسية،ط١، سنة ١٩٨٤.
٤٢. الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م.
٤٣. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية ،الدار العربية للكتاب، تونس،ط٣،(د.ت).
٤٤. د.عبد الفتاح لاشين، البديع في ضوء أساليب القرآن، دار الفكر العربي ، القاهرة،ط١، سنة ١٩٩٩م.
٤٥. د.عبد القادر عبد الجليل،الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، دار صفاء،عمّان، ط١، سنة٢٠٠٢م.
٤٦. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود شاکر، مكتبة الخانجي، ط٥، سنة ٢٠٠٤م.
٤٧. العسكري (أبو هلال)،الصناعتين، تحقيق على البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،دار احياء الكتب، القاهرة،ط١،سنة ١٩٥٢م.
٤٨. العسكري(أبو هلال)،الفروق اللغوية، تحقيق إبراهيم سليم، دار العلم للثقافة، القاهرة،(د.ت).
٤٩. د.فاضل السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن ، مكتبة التابعين، القاهرة، ط١،سنة٢٠٠٨م.
٥٠. د.فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني،شركة العاتك للطباعة والنشر، القاهرة،ط٢،سنة٢٠٠٦م

٥١. د.فاضل السامرائي ، التعبير القرآني، دار عمار، عمان، ط٤، سنة ٢٠٠٦م.
٥٢. د.فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، دار عمار، عمان، ط٢، سنة ٢٠٠٧م.
٥٣. القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الاسلامي،(د.ت).
٥٤. القزويني(جلال الدين)، الإيضاح في علوم البلاغة، علق عليه إبراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٢م.
٥٥. الكرمانى، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق د.السيد الجميلي، مركز الكتاب، القاهرة،(د.ت).
٥٦. المنتبي، الديوان، دار بيروت، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٣م.
٥٧. د. محمد صلاح أبو حميدة، البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، دار المقداد، غزة، ط١، سنة ٢٠٠٧م.
٥٨. د.محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم ، دار الثقافة، الدوحة، ط١، سنة ١٩٨٥.
٥٩. د.محمد عبدالمطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ، القاهرة ، ط١، سنة ١٩٩٤م.
٦٠. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، ط٩،(د.ت).
٦١. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، دار المنار، القاهرة، ط٣، سنة ١٣٦٧هـ.